

هنري برجسون ومنبع الأخلاق

دراسة ، تحليل ، نقد

الدكتور خادم حسين إلهي بخش *

برجسون ومبدأ الإلزام:

من الأمور المتفقة بين علماء الأخلاق الغربيين أنهم يتحدثون عن الإلزام قبل الحديث عن الأخلاق، أيًا كان نوعها ، ويررون أن الإلزام سواءً كان آتيًا من الخارج أو نبع من الشعور الداخلي للإنسان الذي يولد الأخلاق ، لذا نجد برجسون بدأ رأيته (منبعاً الأخلاق والدين) بالإلزام .
الإلزام:

أودعت الغريرة في الإنسان أن يعيش في صورة تجمع ، وتبرز نواته البدائية في صورة الأسرة ، ثم الأمة ، وينبغي أن تصل صورتها النهائية حتى تعم الإنسانية جماء (١) .

ويرى برجسون أن الطبيعة ميزت الإنسان بالعقل ، والعيش جماعة مع غيره ، واقتضى ذلك التزامات وواجبات على الفرد تجاه المجموع ، تسمى بالأخلاق الاجتماعية ، وعليه الامتثال لها ، ويصف مثل هذه الأخلاق الاجتماعية فيقول : (توجيه إرادات الأفراد في اتجاه واحد) (٢) .

ويحصر مهام مثل هذه الأخلاق الاجتماعية في ضغط المجتمع على أفراده لحفظ على وحدتهم ، والتحام بعضهم مع بعض ، (أما أن تُصنف الأخلاق هو واجبات يفسر الإلزام فيها بضغط المجتمع على الفرد ، فهذا ما يوافق عليه في غير مشقة كبيرة ، لأننا نُعاني (نرى) هذه الواجبات في الحياة الجارية ، وقد صيغت في أوامر واضحة جلية ، فمن السهل أن ندركها في جزئها المرئي ، وإن نهبط بها حتى نبلغ جذورها ، فنكشف عن المطلب الاجتماعي الذي صدرت عنه) (٣) .

ويرى سبب وجود مثل هذه الأخلاق يمكن في الإبقاء على الفرد الإنساني ، وفي الإبقاء على المجموعة التي ينتمي إليها ، وتحقيق مصالحهما معاً ، ويرد قول من يرى أن الأخلاق تتحقق في تحقيق مصلحة الفرد فحسب ، وأنها نفعية فردية تتشد المصلحة الشخصية ، ويقدم حجته في النفي ، بأن الغريرة التي أودعتها الطبيعة في كل منا تختلف فيها المصلحة الفردية بالمصلحة الجماعية ، فلا يستطيع الكائن العاقل حيازة أحدهما دون الأخرى) (٤) .

فالإلزام وُجد من أجل البقاء على الأفراد في صورة صون المجتمع ، والإبقاء على وحدته متساكين (وكلما تمايز المجتمع نتيجة لتقسيم العمل كان يعهد إلى الجماعات الصغيرة التي تتكون في داخله بمهمة ترويض الفرد ، وجعله على وفاق معها ، وبالتالي معه ، والأمر في هذه الأحوال كلها أمر مجموعه من العادات وُجدت تحقيقاً لمصلحة المجتمع فحسب) (٥) .

والإلزام ضرورة من ضرورات الحياة ، لا يستطيع العاقل رفض مثل هذه الضرورة - وربما افترضها ضمني دون أن يعطيها الاستقلال - أو يربطها بمبدأ يستحيل تخطيه ، (٦) (ما دام المجتمع موجوداً فهو يحدث بالضرورة ضغطاً على أعضائه ، وهذا الضغط هو الإلزام) (٧) .

ويهدف الإلزام الأخلاقي إلى تحقيق فكرة الخير ، فكل خلق ملزم ينبع من هذا المنبع (فكل بواطن العمل تدرج تحت مثال الخير على سلم مدرج ، وكلما كان البائع أقرب إليه كان أشرف ، وهكذا تكون جاذبية الخير مبدأ الإلزام) (٨) .

وينفي أن يكون الإلزام الأخلاقي مبنياً على العقل والأمور الفكرية ، وإنما الإلزام يأتي من المجتمع ، ويرسم العقل غaiات نشاطنا مطابقاً لمطالبات المجتمع ، (من السهل أن نرى أنه ليس لأي غاية أن تفرض نفسها فرضاً إلزامياً ، لمجرد أن العقل يقترحها) (٩) فالعادات إلزام ، وما يسود المجتمع من التقاليد واجب اجتماعي ، مهمته ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض) (١٠) .

* استاذ قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الطائف، السعودية

رغم حصر الإلزام الأخلاقي في المجتمع ، يطالب برجسون بعد قبوله إلا بعد مناقشة عقلية حرة ، خالية من الضغط (وإذا حفينا الان تحت هذا الوهم الشائع الذي تشتراك فيه كل النظريات الأخلاقية ، وجذنا الإلزام ضرورة لا تقبل إلا بعد مناقشة ، فهي وبالتالي مصحوبة بعقل وحرية) ⁽¹¹⁾

ويخلص مبدأ الإلزام فيقول (وخلاصة القول : إن الإلزام الذي نلقاه في أعمق شعورنا ، والذي يربطنا ببقية أعضاء المجتمع ، كما يدل على ذلك اسمه ، هو رابطة شبيهة في نوعها بالرابطة التي تشد أعضاء قرية النمل أو خلية النحل بعضها إلى بعض) ⁽¹²⁾ فالعادة في الإنسان تساوي الغريزة في الحيوان ، فكلاهما يعمل لصالح المجموع ⁽¹³⁾.
تلخيص مبدأ الإلزام :

يمكن تلخيص ما قاله برجسون في خمس نقاط :
الإنسان اجتماعي بطبيعة ، لذا يعيش في وحدات مجتمعة .

ضغط المجتمع في توجيهه إرادات الأفراد ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، وينتتج عنه مبدأ الإلزام .

تأتي الأخلاق لتحقيق مصالح الفرد ومصالح الجماعة ، لتمثل فكرة الخير للجميع .
منبع الإلزام هو المجتمع ، لا العقل .

قبول الإلزام يقتضي وجود العقل والحرية .
المناقشة :

حين ننظر إلى النقطة الأولى نجدها فطرية ، لا يستطيع الإنسان تقادها على الإطلاق ، لأن كل فرد من أفراد المجتمع البشري يحتاج إلى غيره ، فالغنى يحتاج إلى من يكن له داره ، وإلى نجار يصلح له أبوابه ونوافذه ، ، والكناس والنجار ... يحتاجان إلى مال الغني بعد أداء العمل لتلبية حواجزهم المادية ، كل ذلك موجود لا يمكن إنكاره .

و جاء شرع الله الأخير لتحقيق هذا المبدأ . الإنسان اجتماعي بطبيعة . وإظهاره في صورة ملموسة مشاهدة تجد أوامره جاءت لتحقيقه كواقع ملموس في كل أمر يحتاج فيه الإنسان إلى التجمع ، مما تشريع الصلاة بأنواعها المختلفة ، وتشريع الحج وفرض الصيام على الجميع ... إلا إظهار التجمع والتوكيد بين البشر .

وإذا نظرت إلى أحكام السفر الذي يتوجه بعض الناس ويعده من الخصوصيات التي تستحق الانفراد ، تجد الشرع يأمر بالتجمع ، فقد صح من قوله : صلى الله عليه وسلم (الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب) ⁽¹⁴⁾.

فما قاله برجسون قد جاء به الشرع قبل ولادته بعشرات السنين ، فلا جديد فيما جاء به .
وعند النظر في النقطة الثانية نجد الرجل يربط الإلزام بالمجتمع ، ويحصره فيه ، وإنه ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، بينما الصحيح أن أوامر المجتمع رافد من روافد الإلزام ، ولا يلزم أن يكون كل إلزاماته صحيحة ، بل تحتمل الصحة والفساد ، فإن كان المجتمع رافداً من روافد الإلزام فإن من روافده أيضاً :

الحب ، فالمحب يتلزم تجاه محبوبه بكل متطلباته ، وربما قاده هذا الإلزام إلى ارتكاب بعض المحظورات الشرعية أو الاجتماعية .

الكره ويفقد إلى الإلزام السليبي ، ما لم يكن للملزم سلطة التنفيذ القهرية .
الإعجاب بالشيء يقود إلى الإلزام ، بعض النظر عن المُعجب به ، دون النظر إلى نتائج الامتثال المؤدية إلى الحسن أو القبح .

الحصول على المنفعة يقود إلى الإلزام ، فمتى أيقن الإنسان أن منفعته تتحقق من هذا الإلزام امتنى له حب الشهرة والبروز يؤدي إلى الإلزام فكم من ملتزم بأمر لم يتلزم به إلا للبروز وإشادة الناس به ، فلولا ذلك لم ينقد لامتنال .

وأعظم هذه الروافد وأجمعها حكمة هو راقد الوحي الإلهي ، فالإلزام من خلق الإنسان

وعرف ما ينفعه وما يضره أحق بالإمتحان ، من تنحصر دائنته في المنظور المشاهد القريب ، لذا يحصر وحي الله الأخير مبدأ الإلزام في أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويربط أنقل الإلزام القهري - الإلزام الحاكم - بموافقتهم ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فُرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ ثَوْبًا) (٥٩) (١٥) .

وجاء التأكيد على هذا المبدأ على لسان رسول البشرية محمد صلى الله عليه وسلم (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (١٦) .
وعند النظر في النقطة الثالثة من أن الإمتحان للأخلاق الاجتماعية ينتج عنه مبدأ (الخير للجميع) وبذلك تتحقق مصالح الفرد ومصالح الجماعة .

لا يختلف اثنان أن البشر جماعاتٍ وفرادٍ يبحثون عن النفع والخير ، لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو : من الذي يعرف أن هذا خيرٌ فيائيه ، وهذا شرٌّ فيمتنع عنه ، فهوهي المجتمعات الغربية تمثل لأخلاق يظنون أنها تحقق الخير ، مثل السماح بتعاطي الزنا من البالغ الراشد دون إكراه ، وشرب المسكرات ، وإباحة المعاملات الروبوية

كل ذلك من الأخلاق الاجتماعية ويتعاطونها لظنهم أنها تحقق الخير للجميع ، بينما العديد من المجتمعات البشرية - المسلمة واليهودية والهندوسية والنصرانية المتمسكة بأحكام الإنجيل ... - تنظر إليها بعين الحرمة والسخط ، رغم إتيان بعض أفرادها لمثل هذه المحرمات الاجتماعية .

فقضية تحديد الخير ظلت وستظل موضع نزاع بين الخاضع لله ، والخاضع لغير الله ، ومتى أيقن الإنسان أن أفضل الوسائل وأحكامها للتعرف على الخير تنحصر في اتباع أحكام الله ، وأحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لن يختلف في تحديد مفهوم الخير والشر ، فقبل البحث في تحقيق الخير يجب تحديد الجهة التي تعرف الخير والشر ، والمفید والضار ، فيما يخص الحياة البشرية ، فعند ذلك يتحقق الإمتحان للأخلاق الاجتماعية مبدأ الخير للجميع .

وأما الإمتحان للأخلاق الاجتماعية في صورتها الحالية فهي موضع نزاع في تحقيق الخير للجميع ، لأن المجتمعات البشرية تعيش بعاداتٍ ومبادئ ذات توجهات مختلفة ، بل متارضة ، لذا لن يقود الإمتحان لها إلى مبدأ الخير للجميع ، فالمجتمعات الشرقية مثلاً تمنع عن أكل لحم الخنزير لقناعتها أنه ينزع الغيرة ، بينما المجتمعات الغربية تقدم حسناً هذا اللحم إلى أفرادها حتى فضلت على سائر اللحوم ، لذا قلما تخلو وجتهم من مكونات هذا الحيوان .

وعند النظر في النقطة الرابعة من أن منبع الإلزام هو المجتمع لا العقل يبدو وجيهًا في بادي الأمر ، ولكنك سرعان ما تدرك أن حصر الإلزام في المجتمع استهانة بالعقل البشري ، كما أنه حصرٌ لما لا يقبل الحصر ، حين ينطلق من منبع بشري .

فالعقل مفتاح الإلزام ، فما لم يقتنع لا يمكن أن يأمر الجوارح بالإمتحان ، لذلك لا تجد أحكام الشرائع الإلهية منافية لما يدعو إليه العقل ، ومن هنا تخضع الأمم للرسول الذي بعثه الله إليها ، لأنه يأتيهم بما نفعت به عقولهم ، وقد يأتي الرسل بما تحتار فيه العقول ، ولا تأتي بما تنفيه ، وذلك هو المشاهد في المجتمعين من عند الله عزوجل .

اضف إلى ذلك أن المجتمع حين يأمر بأمر تجده مبنياً على عقل أحد الأفراد ، أو على عقول مجموعةٍ من الأفراد ، فالعقل هو الحلقة التي يدور فيها الإلزام ، وإخراجه من هذه الحلقة كإخراج السمك من الماء ليموت ، فمتهى آخر جر الإلزام من العقل فقد إلزاميته .

ويبدو أن مصدرية الإلزام غير العقلي كمصدرية تربية الحيتان في البر .

وعند النظر في النقطة الأخيرة من أن الإلزام يقتضي وجود العقل والحرية ، نجد الأمر يسير مع الواقع ومبتغي البشر ، فوجود العقل وكون الإنسان حرًا في الإمتحان من أعظم شروط الإلزام .
إلا أن الإسلام يضيف إلى ذلك :

أن يكون الممتحن أهلاً لتحمل الإلزام ، وحصر الأهلية في البلوغ والعقل (رفع القلم عن ثلات ، عن النائم

حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق)⁽¹⁷⁾ -
أن يصدر العمل من الممتنع بارادته و اختياره ، فان لم يكن مریداً للفعل ولا مختاراً له لا تلزمـه النتائج
الكاملة فيما صدر عنه ، (... وَلَئِنْ عَلِيْكُمْ جُلَاحٌ فِيمَا أَخْطَلْتُمْ بِهِ وَلَكِنَّ مَا تَعْمَدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا)⁽¹⁸⁾ .

أن يكون الملزـم قادرـاً على الأداء فلا إلزـام مع العـجز (لَا يُكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)⁽¹⁹⁾ .
فـمـتـى توـفـرـ في الإـلـاسـانـ: العـقـلـ ، والـحرـيـةـ ، والـبـلـوغـ ، وـانتـفـىـ عنـهـ العـجـزـ ، وـكانـ مرـيـداـ لـلـفـعـلـ ، كـانـ
الـإـلـازـامـ صـحـيـحاـ عـنـدـ العـقـلـ .

فـبـنـاءـ عـلـىـ مـبـدـأـ الـإـلـازـامـ قـسـمـ بـرـجـسـوـنـ الـأـخـلـاقـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ : أـخـلـقـ مـفـتوـحةـ وـأـخـلـقـ مـغلـقةـ ، وـهـذـاـ هوـ
تـعـرـيفـ الـأـخـلـقـ :

كلـمةـ الـأـخـلـقـ مـأـخـوذـةـ مـنـ فعلـ حـرـوفـ خـلـقـ - مـثـلـةـ العـيـنـ - ، وـلـهـ مـعـانـ مـنـ أـهـمـهاـ : الـبـلـىـ وـالـقـدـمـ ،
وـالـقـيـاسـ ، وـتـقـدـيرـ الـأـمـرـ ، وـالـبـدـاعـ ، وـالـإـلـامـاسـ ، وـالـإـفـتـراءـ وـالـجـيـرـ بـهـ ، وـطـبـعـ عـلـيـهـ ، وـالـمـاعـشـةـ ،
وـالـتـكـلـفـ ، وـالـحـظـ وـالـنـصـيـبـ ، وـالـمـلـخـوـقـ ...)⁽²⁰⁾ .

وـالـأـخـلـقـ جـمـعـ خـلـقـ ، وـالـخـلـقـ حـالـ لـلـنـفـسـ تـصـدـرـ عـنـاـ الـأـفـعـالـ مـنـ غـيرـ حـاجـةـ إـلـىـ فـكـرـ وـرـوـيـةـ
وـالـخـالـقـ اـسـمـ مـنـ أـسـمـاءـ اللـهـ عـزـوجـلـ ، وـهـوـ الـمـبـدـعـ لـلـشـيءـ عـلـىـ غـيرـ مـثـلـ سـابـقـ .

وـعـلـمـ الـأـخـلـقـ هوـ (عـلـمـ مـوـضـوـعـهـ أـحـكـامـ قـيـمـيـةـ تـنـتـعـقـ بـالـأـعـمـالـ الـتـيـ تـوـصـفـ بـالـحـسـنـ أـوـ الـقـبـحـ)⁽²²⁾ .
وـيـعـرـفـ كـتـابـ الثـقـافـةـ الـإـلـاسـلـامـيـةـ - الـمـقـرـرـ عـلـىـ طـلـابـ وـطـلـابـاتـ جـامـعـةـ أـمـ القرـىـ وـجـامـعـةـ الطـافـ .
الـخـلـقـ (بـاـنـهـ) صـفـةـ مـسـتـقـرـةـ فـيـ النـفـسـ فـطـرـيـةـ أـوـ مـكـنـبـةـ ذـاتـ آثـارـ فـيـ السـلـوكـ مـحـمـودـةـ أـوـ مـذـمـومـةـ)⁽²³⁾ .
فـالـخـلـقـ إـذـنـ عـلـمـ سـلـوكـيـ يـنـبـعـ مـنـ الـفـطـرـةـ يـوـصـفـ بـالـحـسـنـ أـوـ الـقـبـحـ ، يـقـوـمـ الإـلـاسـانـ بـأـدـانـهـ عـنـدـ الحاجـةـ،
وـيـخـتـلـفـ عـنـ الـأـعـمـالـ الـغـرـيـزـيـةـ بـأـنـ الـأـخـرـيـةـ لـاـ تـصـفـ بـالـمـدـحـ أـوـ الـذـمـ ، بـيـنـماـ السـلـوكـ الـخـلـقـيـ يـوـصـفـ بـهـماـ،
فـلـأـكـلـ عـنـ الدـجـوـعـ غـرـيـزـةـ وـلـكـنـ الشـرـهـ الزـانـدـ عـنـ الـحـاجـةـ الـعـضـوـيـةـ خـلـقـ مـذـمـومـ ، وـالـإـقـدـامـ الـذـيـ لاـ
يـوـصـفـ بـالـتـهـورـ خـلـقـ مـحـمـودـ يـسـلـكـهـ الشـجـاعـ عـنـدـ الحاجـةـ .

تـعـرـيفـ الـأـخـلـقـ عـنـدـ بـرـجـسـوـنـ :

لمـ يـقـدـمـ بـرـجـسـوـنـ تـعـرـيفـاـ دـقـيـقاـ دـقـيـقاـ لـلـأـخـلـقـ ، وـإـنـماـ ذـكـرـ لـهـ أـوـصـافـ وـمـلـامـحـ تـقـودـ إـلـىـ ماـ يـمـيزـهـ عـنـ
غـيرـهـ مـنـ الـمـصـطـلـحـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ ، فـوـجـودـ الـخـيـرـ فـيـ مجـتمـعـ مـنظـمـ رـبـيـتـ فـيـ الـأـفـعـالـ لـصـونـ الـالـتـاحـ
الـاجـتمـاعـيـ ، وـقـابـلـيـتـهاـ مـنـ أـجـلـ الرـقـيـ الـإـلـاسـانـيـ شـيـءـ مـنـ مـلـامـحـهاـ ، فـكـلـ نـشـاطـ (يـكـونـ أـخـلـقـيـ بـقـدـرـ ماـ
يـكـونـ مـطـابـقـ لـفـكـرـ الـخـيـرـ)⁽²⁴⁾ .

أـقـسـامـ الـأـخـلـقـ عـنـدـ بـرـجـسـوـنـ :

تـنـقـسـ الـأـخـلـقـ الـاجـتمـاعـيـةـ عـنـدـ بـرـجـسـوـنـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ :

أـخـلـقـ إـجـتمـاعـيـةـ مـغـلـقـةـ ، وـيـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ (أـخـلـقـ ضـغـطـ) أـوـ الـأـخـلـقـ الـكـوـنـيـةـ .
أـخـلـقـ إـجـتمـاعـيـةـ مـفـتوـحةـ ، وـيـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ (أـخـلـقـ ظـلـعـ)⁽²⁵⁾ أـوـ الـأـخـلـقـ الـحـرـكـيـةـ .

منـعـ الـأـخـلـقـ الـمـغـلـقـةـ :

تـبـعـ الـأـخـلـقـ الـمـغـلـقـةـ مـنـ الـعـلـاقـةـ الـقـائـمـةـ بـيـنـ الـفـرـدـ وـمـجـتمـعـهـ ، فـالـفـرـدـ الـذـيـ يـقـبـلـ الـخـضـوعـ لـلـجـمـاعـةـ،
فـيـمـتـلـأـ لـأـوـامـرـهـ تـامـ الـامـتـشـالـ ، تـبـرـزـ لـدـيـهـ الـأـخـلـقـ الـمـغـلـقـةـ ، وـقـدـ وـجـدـتـ مـثـلـ هـذـهـ الـأـخـلـقـ مـعـ وـجـودـ
الـإـلـاسـانـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـانـ مـجـتمـعـاـ مـغـلـقـاـ)⁽²⁶⁾ . وـإـنـ الـأـدـيـانـ الـبـادـيـةـ تـمـلـ هـذـهـ النـوـعـ مـنـ الـأـخـلـقـ ، لـأـنـ
الـأـخـلـقـ وـالـدـيـنـ مـتـحدـانـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـأـدـيـانـ .

(فـالـأـدـيـانـ الـبـادـيـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـالـ عـنـهـ إـنـهـ لـاـ أـخـلـقـيـةـ ، أـوـ إـنـهـ لـاـ تـعـنيـ بالـأـخـلـقـ ، إـلـاـ إـذـ نـظـرـنـاـ
إـلـىـ الـدـيـنـ عـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ فـيـ الـمـاضـيـ وـأـرـدـنـاـ أـنـ نـقـارـنـهـ بـالـأـخـلـقـ ، كـمـ صـارـتـ إـلـيـهـ فـيـ الـحـاضـرـ ، إـنـ
الـعـادـاتـ فـيـ الـقـدـيمـ كـانـتـ هـيـ الـأـخـلـقـ كـلـهاـ ، وـلـمـ كـانـ الـدـيـنـ يـحـرـمـ الـخـروـجـ عـنـهـ كـانـتـ الـأـخـلـقـ وـالـدـيـنـ
شـيـئـاـ وـاحـدـاـ)⁽²⁷⁾ .

فـمـثـلـ هـذـهـ الـمـجـتمـعـاتـ مـهـمـاـ كـانـ اـتسـاعـهـاـ فـإـنـهـ تـضـمـ عـادـهـ عـدـدـ مـعـيـنـاـ مـنـ الـأـفـرـادـ ، وـتـسـتـبـعـ غـيرـهـ،
فـيـقـومـ كـيـائـهـاـ عـلـىـ الـإـلـازـامـ بـأـوـامـرـ الـمـجـتمـعـ ، فـتـقـرـضـ نـظـامـاـ مـعـيـنـاـ مـنـ الـعـادـاتـ وـالـتـقـالـيدـ عـلـىـ أـفـرـادـهـ ، يـحـقـقـ

لها وحدتها ويصون كيانها ، فالإلزام في صميمه قائم للمحافظة على التماسك بين أفراد الجماعة، وللعمل على صيانة وحدتهم ضد العدو الخارجي .

وتوجد مثل هذه الأخلاق المغلقة في صورة العادات والأفكار والمؤسسات ، لتوحيد صورة الحياة الاجتماعية ، (إن هناك أخلاقاً سكونية هي التي توجد فعلاً في لحظة معينة، و(في) مجتمع معين، ثم تثبت في العادات والأفكار والمؤسسات، ويرجع طابعها الإلزامي إلى ضرورة الحياة، حياة اجتماعية، مما اقتضته الطبيعة) ⁽²⁸⁾ .

وخرج نتيجة الأخلاق المغلقة، في صورة ظهور مجتمع مغلق يتماسك أفراده فيما بينهم ، غير حافظين بسائر البشر ، همهم القتال، مستعدين دوماً للهجوم أو الدفاع ، ولهذا المجتمع خلق الإنسان وهو المجتمع الإنساني الأول ⁽²⁹⁾ .

ويشجع برجسون بصورة غير مباشرة - باستعمال الكلمات مغلق مفتوح ، ساكن متحرك ، المحدود اللامحدود - أفراد المجتمع على التمرد بعصيان الأخلاق الاجتماعية ، التي يتعاطونها ليصلوا إلى الأخلاق المفتوحة ، (فالقانون يأخذ من الأمر صفة الصرامة ، والأمر يأخذ عن القانون صفة الضرورة التي لا تدفع ، حتى ليبدو لنا الخروج على النظام الاجتماعي شيئاً غير طبيعي ، ونعده ضرباً من الشذوذ أو الاستثناء) ⁽³⁰⁾ .

ولتعميق هذا التمرد يجزم بأن الحياة الاجتماعية تقوم على الوهم، واعتقاد المرء أن غيره أفضل منه، لمعرفته نفائص نفسه واحتياط نفائص غيره عنه ، والمرء بهذا الاعتقاد يكتشف الإنسانية التي في أعماق ذاته ، (ونحن مهما نقس في الحكم على الناس ، فإننا في أعماقنا نعتقد أنهم خير منا ، وعلى هذا الوهم المُوفّق يقوم جزءٌ كبيرٌ من الحياة الاجتماعية) ⁽³¹⁾ .

تلخيص منبع الأخلاق المغلقة:

يمكن تلخيص منبع الأخلاق المغلقة في أربعة نقاط :
تبغ الأخلاق المغلقة من المجتمع ، وأن العادات هي الأخلاق، ويقوم المجتمع بغرسها لتوحيد صورة الحياة الاجتماعية .

الإلزام الأخلاقي قائم للمحافظة على صيانة المجتمع ضد العدو الخارجي .

أصحاب الأخلاق المغلقة همهم قاتل من سواهم هجوماً أو دفاعاً .

غرس التمرد على الأخلاق المغلقة ، وذلك بإعطائها أو صافاً مُنفرة.

المناقشة:

عند النظر في النقطة الأولى من أن المجتمع هو مصدر الأخلاق المغلقة ، لم يصل برجسون إلى الحقيقة الكاملة، لأنه درس الأخلاق عند المجتمعات التي لا تؤمن بالله ، فقاده ذلك إلى حصرها في المجتمع دون ما سواه .

والحق أن المجتمعات البشرية تجاه مصدرية الأخلاق قسمان :

قسم مؤمن بالله ، يعيد مصدريتها إلى الله عزوجل ، ويترك للقياس والاجتهد البشري وتحقيق المصالح العامة مكاناً يغطي ما يتاسب مع أسس الشرع المنزل من عند الله عزوجل .

قسم غير مؤمن بالله يبحث عن مصدريتها في الوسائل البشرية المتاحة ، لذا لا تجد لهؤلاء كلمة اتفاق في تحديد المصدر ، فإن كان برجسون يعيد مصدرية الأخلاق المغلقة إلى المجتمع ، غيره من أصحاب النظريات الخلقية يعيدها إلى غير هذا المصدر كفروند وكارل ماركس وإميل دور كايم .

اما كون العادات هي الأخلاق فأمر لا يختلف فيه البشر ، إذ الممارسة المتكررة لخلق ما يحوله إلى عادة ، يتعاطها الإنسان دون شعور ، ويمكن عدها بأنها شبيهة بالغرائز ، ومن أبرز معالها في هذه الحالة توحيد صورة الحياة الاجتماعية كتوحيد العادات والتقاليد والممارسات المتماثلة .

و عند النظر في النقطة الثانية من أن الإلزام قائم للمحافظة على التحام المجتمع ضد العدو الخارجي نجدنا لا تتبع إلا من قصير النظر ، لأن عيش البشر في تجمعٍ فطرة بشرية ، خلق الله الإنسان عليه ، لا يستطيع الاستغناء عنه ، فكل فردٍ يحتاج إلى غيره مما يقتنه من أعمال الحياة .

أما قضية الالتحام ضد العدو الخارجي فلا أراها إلا وَهُمَا من أوهام برجسون ، لأن التاريخ البشري يشهد بأن الدفاع عن المجتمع لم يتأت عن طريق الأفراد ، بل جاء دائماً في صورة الجيوش والمؤسسات القتالية ، ولنفترض انعدام العدو الخارجي ، وسيادة المحبة بين جميع المجتمعات البشرية ، فهل يتحل الالتحام الاجتماعي؟ .

و عند النظر في النقطة الثالثة من أن أصحاب الأخلاق المغلقة هُمُ القتال نجد الواقع يكذب برجسون، فها هي شعوب العالم الثالث تمتثل للأخلاق المغلقة قلما تجد بينها قتالاً وحروباً ، بل يأتي القتال في الأعم الأغلب من الشعوب و الدول المتقدمة التي تخلت عن مثل هذه الأخلاق كالأمريكيين والبريطانيين والإيطاليين

بل نجد قادة الأخلاق المغلقة وعلى رأسهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ينهى متبعيه عن تمني لقاء العدو ، فضلاً عن أن يكون هُمُ و هُمُ أصحابه القتال (.... أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية)⁽³²⁾ بل نجد القرآن الكريم ينهى عن قتل نفس واحدة ، مما بالك بخوض الحرب ، أو الحروب، أو هواية القتال قال تعالى : (من أجل ذلك كتبنا علىبني إسرائيل آلة من قتل نفساً يغفر نفساً أو فسادٍ في الأرض فكلما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكلماً أحيا الناس جميعاً ولقد جاء ثم رُسلنا بالبيئات تم إنَّ كثيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لِمُسْرِفُونَ(32)).

و عند النظر في النقطة الرابعة نجد الرجل يحاول غرس التمرد على العادات والتقاليد ، وذلك بإعطائها أوصافاً تكره النفس الإنسانية الاتصاف بها .

لا شك أن ذلك جزء من مخطط مُؤرس ضد هدم التعليم الكنسي في الغرب ، و يُقْلَ ذلك إلى المسلمين منذ عهد الاستعمار، عن طريق حكم القوي على الضعف ، ليمارسه تجاه الإسلام وأخلاقياته الإنسانية . ولنفترض أن التمرد قد وقع على الأخلاق المغلقة في أفراد المسلمين ، فهل ستختلف النتائج مما خرجت به في الغربيين ، فها هم قد أباحوا الممارسات الشاذة لوطاً وسحاقاً ، وهذا هي التوادي الليلية تصدر صكوك الزواج بالمحرمات باسم الزواج العرفي والحريات العامة ، فلا مانع أن ينكح الرجل ابنته وأخته وأمه

أباحوا التعاملات الربوية ، فاستغلوا الفقراء لاستثناء الأغنياء عن طريق القروض الربوية ، فما الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية إلا جزء يسير من نتائج هدم الأخلاق المغلقة ، وهذا هم قد أباحوا شرب المسكريات فانكب الفلاحون في المناطق الباردة في العالم على زراعة ثبتة الشخصيات (الأفيون) لاكتساب الثراء على حساب هدم الأخلاق ، فهل من متعظٍ من الواقع والنتائج التاريخية؟ ولاسيما من يدعوا إلى هدم الأخلاق الاجتماعية الإسلامية في الشعوب المسلمة؟ .
لأخلاق الدينية المغلقة.

لا يرضي برجسون رأي من يرى أن الأخلاق الدينية المغلقة تُقرَّضُ بالفلسفه الميتافيزيقيه (الغيب)، من أن الدين جاء بأخلاقيه جديدة تتصل بالله أو بالكون ، أو بصلة أحدهما بالأخر ، كما لا يرضي الرأي المعاكس لذلك : من أن الدين يهبني النفوس لنظره أخلاقيه جديدة ، لم يسبق إلى الناس تقديمها ، بل تتحقق في كونها جديدة ، لم يقدمها أحدٌ من البشر قبل ذلك في تلك الصورة ، فكلا الرأيين في نظره خطأ⁽³⁴⁾.

والصحيح في نظره أن الأخلاق الدينية تثبتني على الانفعال ، فتغدو مذهبها أخلاقياً غير ملزم ، (فليس في استطاعة أي تفكير نظري أن يخلق إلزاماً أو ما يشبه الإلزام ، ومهما تبلغ النظرية من جمال ففي وسعى دوماً أن لا أقبلها ، وهَبْتُها ، فلي أن أدعى الحرية في أن أتصرف كما أشاء ، أما إذا وجد جُواً الانفعال ، فاستروحـت نسيمه ، فنفذ إلى فإنه يثيرني ، فأاصنع ما يريد ، لا عن إكراه أو ضرورة ، بل عن ميلٍ طبيعي لا أحب أن أقاومه)⁽³⁵⁾ وتلك هي الأخلاق الدينية.

ويتهم برجسون الدين بأنه يأمر بأخلاق يخرج منها العقل ، و تقود إلى الضلال والتهيه ، وإنك تراه يتفق المستحسن ، ويوجب الجرائم ، وكلما كان بدايأً كان مجاله التنميـي في حـيـاةـ الشـعـبـ أوـسعـ ، (إذا انظرنا إلى ما كانت عليه الأديان في السابق ، وإلى ما لا يزال عليه بعضها حتى الآن ، رأينا مشهدـاً يُخـجلـ

العقل الإنساني ونسيجاً من الضلالات.

وعلبناً تقول التجربة هذا خطأ ، وعلبناً يقول التفكير هذا مستحيل ، فإن الإنسانية موغلة في تعليها بأذى الخطا والمستحيل ، ولن يت الأمر يقف عند هذا الحد ، فقد رأينا الدين ينفي الأخلاق ويوجب الجرائم ، وكلما كان فجأةً كان مجاله المادي في حياة الشعب أوسع⁽³⁶⁾.

ويجزم بأنه لا تضامن في الواقع بين الدين والأخلاق ، ولا ترابط بينهما ، وأن إله الدين لا يسوؤه الخروج على الأخلاق ، ولا ارتکاب الجريمة ، بل نجده يأمر بهما في التاريخ البشري ، (ولنختم كلّمانا بتبنّيهن دفعاً لسوء التأويل ، عند ما نقول بأنّ من وظائف الدين - كما أرادته الطبيعة - أن يصون الحياة الاجتماعية ، فإنّنا لا نعني بذلك تضامناً بين الدين والأخلاق ، فالتأريخ يشهد بعكس هذا ، ولنّ كان ارتکاب الخطيئة الدينية يسوء الإله دوماً ، فإله لم يسوء الخروج على الأخلاق ، بل ولا الإجرام دوماً ، حتى لقد اتفق له أن أمر بهما⁽³⁷⁾ .

تلخيص الأخلاق الدينية المغلقة:

يمكنني تلخيص الأخلاق الدينية المغلقة في أربعة نقاط :

الأخلاق الدينية المغلقة لا تفرض عن طريق الميتافيزيقيا (الغيب) ، ولا تتقبلها النفوس لجدتها و عدم تقديم أحدٍ مثلاً لها .

الأخلاق الدينية المغلقة تبني على الانفعال ، والميبل الطبيعي .

الدين يأمر بأخلاق يخجل منها العقل ، كففي المستحسن وإيجاب الجرائم .

إله الأخلاق غير إله الدين ، لأنّ الأخير لا يستاء من الجريمة والخروج على الأخلاق . المناقشة:

عند النظر في النقطة الأولى: من أن الأخلاق الدينية لا تفرض عن طريق الغيب ، نجد الأمر مرفوضاً من الوجهة التاريخية عند كل البشر ، فحين ننظر إلى الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم وهي تتحدث عن هذا الجانب ، نجدّها تخبرنا بأعظم قضايا الأخلاق الدينية ، وهي أن لهذا الكون موجوداً ، وهذا الموجّد هو الله ، رغم اختلافها في تصوّر الله .

فالأخلاق الغيبية هي الأساس للديانات الإلهية المنزّلة من عند الله عز وجل ، فمن أعظم هذه الأخلاق أخلاق الإيمان بوجود الملائكة ، وأخلاق الإيمان بإرسال الرسل ، وأخلاق الإيمان بإنزال الكتب ، وأخلاق الإيمان بوجود يوم القيمة للحساب والجزاء .

أما قضية كون النفوس لم تقبلها لجدتها فأمر مسلم ، فما كل جديداً يستحق القبول لدى الناس ، فنزوّل الموت أمرٌ جديد لا ترتضي الناس وجوده ، ورمي الناس بالقتابل المحرقة أمرٌ جديد لا ترتضي الناس صنعه فضلاً عن التعامل به .

بل ارتضت الناس الأخلاق الدينية لوجودها في جيناتها المنقوله عبر آدم عليه السلام ، وقد أخبرنا علم الوراثة أنها لا تنتهي ، وقد تنتهي في جيل أو أكثر ، وربما جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة في قوله سبحانه: (إِذَا أَخْذَ رِبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلْسُنُ رِبِّكُمْ فَالْلَّهُمَا بَلِّي شَهَدُوا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (172)⁽³⁸⁾ .

ومن هنا شملت الأخلاق الدينية كل سلوكيات محمد صلى الله عليه وسلم في حياته ، فقد أجاب أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق وأعرّف الناس به ، حين سئلت عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (كان خلقه القرآن ...)⁽³⁹⁾ .

و عند النظر إلى النقطة الثانية : من أن الأخلاق تبني على الانفعال والميبل النفسي ، نجد الرجل صادقاً في إبراز جزء من الحقيقة ، نعم تبني الأخلاق الدينية على الحب والانفعال ، و قيمة ذلك حب الله وحب رسوله بامتثال الأمر وترك النهي قال تعالى : (فَلَمَّا أَطْبَعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنَّ تَوَلُّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (32)⁽⁴⁰⁾ .

كما تبني على التقليد ، كتقليد الأولاد لآبائهم وأقرّبائهم قال تعالى: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفِّهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أَمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ) (23)⁽⁴¹⁾ .

كما تبني على ضغط القوي على الضعيف حين يطغى الأول ويرى في نفسه عنصر التفوق على من يضغط عليه ، كضغط صاحب العمل على العامل والأمير على الرعية ورئيس الوزراء على الوزراء والملك على من دونه قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرْنِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِلَّيْ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِيَّنِكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (26).⁽⁴²⁾

هذه بعض الروايات التي تؤدي إلى الأخلاق الدينية ، فما من خلق ديني إلا وراءه حب ، أو تقليد ، أو ضغط

و عند النظر في النقطة الثالثة : من أن الدين يأمر بأخلاق يخجل منها العقل ، كنفي المستحسن او إيجاب الإجرام ، كل ذلك حق وصدق في أخلاقيات الدين الباطل ، الذي تخترقه العقول البشرية ، كدين فرعون الذي كان يقدم ضحية سنوية لنهر النيل ، في صورة أجمل فتاة بعد تزيينها كانها في ليلة زفافها ثم ربها فيها ، جلباً لرضى النيل حتى لا يجف⁽⁴³⁾

ومثل عبادة الأصنام التي ينتحلها البشر ، رغم علمهم بناحتتها ، ويقينهم أنها لا تضر ولا تنفع ، ومع ذلك يقدسونها ويعبدونها طلباً لرضاهما وتجنبها لسخطها ، قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: (ولقد آتينا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِّنْ قَبْلٍ وَكَانَ بِهِ عَالَمِينَ) (51) إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (52) (53) قالوا وَحَدَّنَا آيَاتُنَا لَهَا غَابِدِينَ قالَ لَهُمْ كُنُثُمْ أَنْثُمْ وَأَبَاوْكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قالوا أَجَنَّتَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الظَّاهِرِينَ (55) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَكُرِمِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَالَّهُ لِأَكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ ثُوَلُوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَى كَبِيرًا لَهُمْ لَعَنْهُمْ إِنْهُ بِرْجُونَ (58).⁽⁴³⁾

و عند النظر في النقطة الرابعة : من أن إله الدين لا يسوءه ارتکاب الجرم ولا الخروج على الأخلاق ، وعليه بنى برجسون أن لكل واحدٍ من الدين والأخلاق إليها مستقلًا .

لا شك أن ذلك افتراء مكشوف على الدين الحق ، فحين ننظر إلى القرآن الكريم نجد الجريمة مبغوضة عند الله عزوجل ، ويمعن عن ارتکابها ، فالقتل جريمة أخبر القرآن الكريم أن الله يغضب على من يرتكبها (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (93).⁽⁴⁴⁾

أما الخروج عن الأخلاق وترك ما يجب الناس إتيانه ، فشرع الله الأخير بلغ في ذلك قمته ومنتهاه ، انظر إليه وهو يشرع المعاملة المثلية تجاه من اعتدى ، ويفجب إلى من اعتدى عليه العفو والصفح قال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَاتِ مُّتَّهِيَّا فَمَنْ عَفَ وَأَصْلَحَ فَأُجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُجْرِي الظَّالِمِينَ) (40).⁽⁴⁵⁾

إذن إله الدين الحق توسيعه الجريمة ولا يريد الخروج على الأخلاق ، وإن مصدر الدين والأخلاق واحدٌ عند البشر منذ وجودهم حتى اليوم ، ولم يشذ عن هذا الاتفاق إلا برجسون ، فالبشرية بمؤمنها وكافرها لا تعرف لهما إلا مصدراً واحداً ، أما هذا التفريق : للدين إله وللأخلاق إله آخر فلا عهد للبشرية به .

تعريف الأخلاق المفتوحة:

سبق أن ذكرت أن برجسون قلماً يذكر تعريفاً محدداً للشيء الذي يتحدث عنه ، بل يكتفي بذكر الأوصاف التي تميزه عن غيره ، فمن ذلك ما يتصل بالأخلاق المفتوحة : فمن أوصافها عند برجسون أنها ليست وليد ضغط اجتماعي ، وإنما تصدر عن تزوع سام تتمثل فيه جاذبية القيم ، وعدم استجابة الفرد لنداء مجتمعه ، بل يستجيب لنداء الإنسانية ، الذي يسعى نحو العمل لما فيه مصلحة البشرية جماعاً ، و يجعل نموذجه الأعلى في المحبة والكمال الأخلاقي .⁽⁴⁶⁾

نقوم مثل هذه الأخلاق المفتوحة على اكتاف عظام البشرية ، من العباقرة والمصلحين ، خلقهم الطبيعة بوثنية حيوية ، لا سبيل إلى التتبؤ بنتائجها ، وهم أقرب الناس إلى مصدر الحياة وينبعون الجد ، وتنشر عن طريق القدرة الصالحة والنموذج الحي ، وكثيراً ما تساهم مثل هذه الأخلاق المفتوحة في تغيير طبيعة المجتمعات المغلقة،⁽⁴⁷⁾ (لقد تجسدت هذه الأخلاق في شخصيات ممتازة ، كانت تتتجسد في كل الأزمان).

فقد عرفتها الإنسانية قبل أن تعرف القديسين، من أهل المسيحية وحكماء اليونان وأنبياءبني إسرائيل وأبطال اليوذية ، وغيرهم كثرين، وبهم كان الناس يقتدون حتى ينالوا هذا التخلق الكامل ، الذي يحسن أن يسمى بالتلخلق المطلق.... بينما نرى أن الأخلاق الأولى تزداد صفاءً ونقاءً على قدر ما نستطيع ردها إلى قوانين لا شخصية، نجد أن الأخلاق الثانية لا تكون هي هي ذاتها ما لم تتجسد في شخصية ممتازة ، تتحدى قدوة ثحتذى، فعomorphic الأولى تأتي من قبول الناس عامة قانوناً من القوانين، بينما عمومية الثانية تأتي من محاكاة الناس لمثال يحتذونه) ⁽⁴⁸⁾

فالأخلاق المفتوحة تُبرز تجمعاً ربط الناس جميعاً بعضهم ببعض ، دون النظر إلى المعارض أو من يضع العوائق في طريق هذا الالتحام ، وتتغير مثل هذه الأخلاق المفتوحة في ضوء تحقيق المصلحة لكل البشر ، دون الالتفات إلى فئة معينة ⁽⁴⁹⁾.

تلخيص الأخلاق المفتوحة:

يمكنني تلخيص الأخلاق المفتوحة في ثلاثة نقاط :
إنها نزوعٌ فرديٌ تتبع من القيم .

يرفض أصحابها نداء مجتمعه ، ويستجيب لنداء الإنسانية لتحقيق مصلحة البشر أجمعين .
ينحصر عمل مثل هذه الأخلاق في غرس المحبة بين البشر أجمعين ، و تقوم على اكتاف العظام من العاقرة والمصلحين .
المناقشة :

عند النظر في النقطة الأولى نجد برجسون قد ذكر الواقع المشهود، الذي عاينه في تاريخ العظام،
ففيهم نزوعٌ إلى القيم ، لكن السؤال الذي يفرض نفسه : من الذي يخلق هذا النزوع في زيد دون عمرو ؟
ولم لا يكون كل البشر مؤهلين لمثل هذا النزوع فيكونون عبارة لتماثل التكوين الحيوي والعضواني فيهم جميعاً ؟

بل إن ذلك اختيار من ذاتٍ تهيم على هذا الكون ، وتتصحر فيه حسب إرادتها ، سمت نفسها باسماء
ووصفت نفسها بأوصاف ، فمن أعظم اسمائها اسم (الله) ، فهو الذي يهيئ مثل هذه النفوس ، ويجعل فيها
الإباء لما يضر البشر والاندفاع إلى الامتثال لما فيه مصلحة البشر ، وقمة هذه النفوس هم الرسل
والأنبياء .

فالبعوثون يُعدون إعداداً خاصاً لأداء مثل هذه المهامات الخلقية، ابتداءً باختيار السلالة (بعثت من
خير قرن بني آدم قرناً ، حتى كنت من القرن الذي بُعثتُ فيه) ⁽⁵⁰⁾ وانتهاءً بأخذ الهدایة كاملة من
الله عزوجل ، قال تعالى عن آخر رسنه تجاه هذا الإعداد (ألمْ يَجِدُكَ يَتِيماً فَأَوَى { 6 } وَوَجَدَكَ ضَالَّاً هَدَى
{ 7 } وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى { 8 } / فَلَا تَقْهَرْ { 9 } / وَمَا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) ⁽⁵¹⁾.
فالأمر برمنته انتقاء من ذاتٍ خارج النفس الإنسانية ، وإعداد منها لمثل هذه الأخلاق السامية .

وعند النظر في النقطة الثانية من أن صاحب الأخلاق المفتوحة يرفض نداء المجتمع ، ويستجيب
لداء الإنسانية فأمر مشهود في تاريخ الأنبياء لا يحتاج إلى بحثٍ أو تنقيب ، فما مننبي إلا وتجده
يرفض الشرك بكل أنواعه ، رغم أن المجتمع يدعوه إليه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشَرِّكَ بِاللَّهِ فَقُدْرَى إِنَّمَا عَظِيمًا { 48 }) ⁽⁵²⁾.

كما يرفضون كل سلوكٍ عملي لا يقود إلى الإصلاح ، فها هو محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم -
يرفض الشهادة في العطاء من أبٍ لابنه ، لعدم مساواته بين الأولاد فعن حصين بن عامر قال: (سمعت
النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطياني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة،
لا أرضي حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنني
أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمررتني أن أشهدك يا رسول الله ، قال أعطيت سائر ولدك
مثل هذا؟ قال لا ، قال فأنقوا الله واعدولوا بين أولادكم ، قال فرجع فرد عطiente) ⁽⁵³⁾.

فسرع الله الأخير هو الوحيد الذي يستطيع أن يحقق مصالح الناس أجمعين ، واستجابة نداء الإنسانية
لا يتأتى إلا منه ، فاتباع حكامه والامتناع عن منهياته كفيلان بتحقيق ما تطمح إليه النفس الإنسانية أينما

وُجِدت، في القرى أو المدن أو الأرياف ، وما على البشر إلا الخضوع لأخلاقيات هذا الدين .
وَعِنْ النَّظَرِ فِي النَّقْطَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْمُفْتَوَحَةَ يَنْحَصِرُ عَمْلُهَا فِي غَرَسِ الْمُحَبَّةِ بَيْنَ الْبَشَرِ ،
وَإِنَّهَا تَنْتَقِلُ عَنْ طَرِيقِ الْعَظَمَاءِ بِالْأَسْوَةِ وَالْإِقْتَدَاءِ أَمْرٌ يَسْنَدُهُ الْوَاقِعُ ، إِلَّا أَنَّ السُّؤَالَ يَبْقَى قَائِمًا مِنْ الْحَامِ
الَّذِي يَفْصِلُ أَنَّ هَذَا عَبْرِي وَأَخْلَاقِيهِ تَسْتَحِقُ الْإِتَّبَاعَ ؟ وَلَا يَمْكُنُ الْقُطْعُ فِي تَعْبِينِ الْعَبْرِي إِلَّا مِنْ جَهَةِ
خَارِجِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَأَنَّ اتِّفَاقَ الْبَشَرِ فِي تَحْدِيدِهِ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ ، لَا حَتَّى الْإِدَعَاءُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ أَنَّهُ
عَبْرِي .

وَلَا شَكَ أَنَّ تَلْكَ الْجَهَةَ الْمُحَدَّدةَ لِلْعَبْرِي وَالْعَبْرِيَّةِ مُوجَودَةٌ ، وَقَدْ عَيْنَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ
وَعَلَا فَتَحْدِيدُهُ سَبِّحَانَهُ يَرْفَعُ النَّزَاعَ فِي تَعْبِينِ الْعَبْرِي وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ الْعَبْرِيَّةِ .

أَمَّا قَضِيَّةُ غَرَسِ الْمُحَبَّةِ بَيْنَ الْبَشَرِ فَأَمْرٌ مُشَهُودٌ فِي الدِّينِ الْمَنْزَلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَدْ حَقَّقَهَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ فِي صُورَةٍ تَعْجَزُ الْبَشَرِيَّةَ عَنْ تَقْدِيمِ مُثِيلٍ لَذَلِكَ ، فَمَا الْإِخَاءُ بَيْنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَّا جُزءٌ ضَئِيلٌ مِنْ تَلْكَ الْمُحَبَّةِ بَيْنَ الْبَشَرِ ، وَمَا أَعْظَمُ ذَلِكَ : الْمُبِدَّا الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ
عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِغَرَسِ الْحُبِّ بَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (لَا يُؤْمِنُ أَحْدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا
يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)⁽⁵⁴⁾ .

وَأَخْتَمُ بِحَثِّي هَذَا بِذِكْرِ نَمَادِجَ مِنْ أَخْلَاقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْدِرُ وَجُودَهَا فِي الْبَشَرِ ، وَيَقُوْدُكُ
ذَلِكَ إِلَى الْقَنَاعَةِ التَّامَّةِ مِنْ أَنَّ اتِّبَاعَهُ فِي كُلِّ شَوْؤُنِ الْحَيَاةِ هُوَ الْحَلُّ الْأَمْثَلُ لِاِكْتَسَابِ الْأَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ .
نَمَادِجُ أَخْلَاقِ نُوبِيَّةِ يَنْدِرُ وَجُودُهَا فِي الْبَشَرِ :

أَخْلَاقُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَّاهَا سَامِيَّةً بِشَهَادَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، إِلَّا أَنْ بَعْضُهَا أَرْفَعَ مِنْ بَعْضٍ ،
وَمِنْهَا مَا يَصْعُبُ الْوَصْوَلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ النَّفْوِ السَّكِيرَةِ فَمِنْ ذَلِكَ :
شَرَاءُ الشَّيْءِ مِنْ صَاحِبِهِ وَإِهَادُوهُ إِلَيْهِ⁽⁵⁵⁾ .
إِنْفَاقُ كُلِّ الْمَالِ الَّذِي مُلْكَتْهُ يَمْنِيَّهُ فِي عَبْدِ اللَّهِ⁽⁵⁶⁾ .
رَدُّ الْقَرْضِ بِأَفْضَلِ مِنْهُ⁽⁵⁷⁾ .

الْتَّجَازُ عَنِ الْأَخْطَاءِ مِنْ دُونِهِ ، فَقَدْ خَدَمَ أَنَسَ بْنَ مَالِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَشْرَ سَنِينَ لَمْ يَسْأَلْهُ لَمَّا فَعَلَتْ كَذَا وَلَمْ تَرَكْتْ كَذَا⁽⁵⁸⁾ .

عَدْمُ رَدِ السَّائِلِ عَمَّا طَلَبَهُ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ⁽⁵⁹⁾ .
عَدْمُ الْمُحَايَاةِ فِي إِنْفَادِ الْعَقُوبَةِ مِمَّا كَانَتْ صَلَةُ الْقِرَابَةِ⁽⁶⁰⁾ .
الْبَسَاطَةُ فِي الْمَعِيشَةِ إِلَى حدِ الْإِكْتِفَاءِ بِأَقْلَلِ الْقَلِيلِ⁽⁶¹⁾ .

أَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ الْبَشَرِيَّةَ اتِّبَاعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَتَحَقَّقَ فِيهِمُ الْأَخْلَاقُ الْإِنْسَانِيَّةُ .

الهوامش

1. انظر منبعاً الأخلاق والدين ص 39.
2. منبعاً الأخلاق ، ص287 وانظر للتفصيل ص 18 - 19 ، وص.100.
3. منبعاً الأخلاق ، ص56 ، وانظر ص 43 وص 75 - 76 .
4. انظر منبعاً الأخلاق ، ص43 - 44.
5. منبعاً الأخلاق ، ص 106 ، وانظر للتفصيل ص 15.
6. انظر منبعاً الأخلاق ص 103 .
7. منبعاً الأخلاق ص 109 .
8. منبعاً الأخلاق ص 291 ، وانظر للتفصيل ص 96 .
9. منبعاً الأخلاق ، ص97 ، وانظر للتفصيل ص 31 وص.102.
10. منبعاً الأخلاق ، ص135 .
11. منبعاً الأخلاق ، ص100 .
12. منبعاً الأخلاق ص 91 .
13. انظر منبعاً الأخلاق ، ص 20 ، وص105 ، وص299 .
14. رواه الإمام مالك في المؤطرا ، كتاب الجامع ، باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء ص 694 .
15. سورة النساء آية 59 .
16. رواه البخاري ، فتح الباري كتاب الأحكام بباب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ج 13 ص121 . وفي مسند الإمام أحمد (لا طاعة لمخلوق في معصية الله عزوجل) مسند العشرة المبشرين بالجنة رقم الحديث 1041 .
17. سنن النسائي كتاب الطلاق باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ص 480 .
18. سورة الأحزاب جزء من آية 5 .
19. سورة البقرة جزء من آية 286 .
20. انظر المعجم الوسيط ، مادة خلق ج 1 ص 251 .
21. انظر المصدر السابق ج 1 ص252 .
22. المعجم الوسيط ج 1 ص 251 .
23. المستوى الأول ص 193 .
24. منبعاً الأخلاق ص 96 .
25. انظر منبعاً الأخلاق ص 290 وص87 وص62 وص67 .
26. انظر منبعاً الأخلاق ، ص63 - 64 وص 292 .
27. منبعاً الأخلاق ، ص135 .
28. منبعاً الأخلاق ، ص290 .
29. انظر منبعاً الأخلاق ص 38 وص 65 .
30. انظر منبعاً الأخلاق ، ص17 ، وص 28 .
31. منبعاً الأخلاق ، ص 16 .
32. جزء من حديث ، رواه البخاري ، فتح الباري كتاب الجهاد باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس ج 6 ص160 .
33. سورة المائدة آية 32 .
34. انظر منبعاً الأخلاق ، ص 55 .
35. منبعاً الأخلاق ص 55 .
36. منبعاً الأخلاق ، ص113 .
37. منبعاً الأخلاق ، ص219 .
38. سورة الأعراف آية 172 .
39. مسند الإمام أحمد ج 6 ص 54 ، وص91 ، وص 111 ، وص162 ، وص188 ، وص216 .
40. سورة آل عمران آية 31 .
41. سورة الزخرف آية 23 .
42. سورة غافر آية 26 .
43. سورة الأنبياء آية 51 - 58 .
44. سورة النساء آية 93 .
45. سورة الشورى آية 40 .

- . 46. انظر منبعاً الأخلاق ، ص108 .
- . 47. انظر منبعاً الأخلاق ، ص40 .
- . 48. منبعاً الأخلاق ، ص40 - 41 .
- . 49. انظر منبعاً الأخلاق ، ص287 .
- . 50. الحديث أخرجه البخاري ، كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتح الباري ج 6 ص 566 .
- . 51. سورة الضحى آية 6- 10 .
- . 52. سورة النساء آية 48 .
- . 53. الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الهبة باب الإشهاد في الهبة ، فتح الباري ج 5 ص 211 .
- . 54. الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فتح الباري ج 1 ص 56 .
- . 55. انظر قصة شراء الجمل من جابر وإهداوه صلى الله عليه وسلم الجمل والثمن إليه في صحيح البخاري ، فتح الباري ج 4 ص 320 .
- . 56. انظر حديث أبي ذر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري فيما لو ملك مثل جبل أحد ذهب لأنفقه في عباد الله ، فتح الباري ج 5 ص 54 .
- . 57. انظر صحيح البخاري ، قصة رد الجمل الذي افترضه رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بجمل أفضل منه فتح الباري ج 5 ص 5 .
- . 58. انظر صحيح البخاري ، فتح الباري كتاب الاستذان باب آية الحجاب ج 11 ص 22 ، ومسند الإمام أحمد ، مسند أنس بن مالك رقم الحديث 11803 .
- . 59. انظر حديث البردة المنسوجة - في صحيح البخاري - التي اهداه إحدى الصحابيات له صلى الله عليه وسلم فلبسها النبي محتاجاً إليها فطلبتها صحابي فأعطاه إياها ، فتح الباري ج 3 ص 143 .
- . 60. انظر حديث المخزومية في صحيح البخاري وفيه قوله صلى الله عليه وسلم (... وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) فتح الباري ج 12 ص 87 .
- . 61. انظر حديث عمر رضي الله عنه في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثر الفراش في جنبه ، مسند الإمام أحمد ج 3 ص 46 .